مقياس: النقد الأدبي العربي الحديث

السنة الثانية ليسانس (دراسات أدبية/ دراسات نقدية)

المحاضرة السادسة: جماعة الديوان2

- **الآراء والقضايا النقدية عند جماعة الديوان**

1- مفهوم الشعر:

لم يحاول أحد من أعضاء جماعة الديوان أن يحصر الشعر في تعريف محدد، وإنما تعددت أقوالهم حوله؛ يقول العقاد: "من أراد أن يحصر الشعر في تعريف محدد كمن يريد أن يحصر الحياة نفسها في تعريف محدود".

وقد اتفقوا على أن الشعر تعبير يرتبط بالعالم الداخلي للشاعر؛ من ذلك قول العقاد في مفهومه للشعر: "إنه التعبير الجميل عن الشعور الصادق"، والشعور هو الإحساس بالحياة في جزئياتها بآمالها وآلامها، وهو ليس شعورا ذاتيا بل شعور إنساني عام، تظهره ذات الشاعر الخاصة في علاقاتها بالحياة والناس والطبيعة ومظاهرها.

والشعر عند عبد الرحمن شكري ما تمثل عواطف وأحوال النفس؛ يقول معبرا عن ذلك:

إنّ القُلوبَ خوافـــــق والشِّعرُ من نبضاتها
فترى الحياةَ جميعَـها منشــورةً بصِفاتـــها
والشعر مرآةُ الحـــــياة تـــطلُّ من مرآتـــها

إذ يرى أنه لا يمكن إدراك الحياة ومعرفتها إلا من خلال الشعر، الذي يعد المرآة التي تطل منها متمثلة بنفس الشاعر الكبير (الإنسانية).

ويلخص المازني مفهومه للشعر في بيت شعري يقول فيه:

وما الشعر إلا صرخةٌ طال حبسها يرنُّ صداها في القلوب الكواتِمِ

فالشعر عواطف وخواطر تظل مكبوتة في نفس الشاعر، وما إن يخرجه في تعبير جميل حتى يجد له صدى في قلوب الآخرين باعتباره صورة عن حياتهم.

ويتلخص الشعر عند جماعة الديوان في أساسين: الحس الصادق، والقدرة على نقله بالتعبير الجميل؛ فهو عندهم تعبير عن الذات والعوالم الداخلية للإنسان، ثم يتسع ليشمل الحياة كلها.

وهم في ذلك متأثرون بالنقاد الإنجليز في مفهومهم للشعر لا سيما 'وليم هازلت' الذي يقول: "إن الشعر في موضوعه وشكله هو المجاز أو الشعور الطبيعي ممتزجا بالعاطفة والتخييل".

– ويمكن القول إن تجديد الشعر عند جماعة الديوان كان على مستوى جوهره ومقوماته وهي: أن يتغلغل ذلك الشعر بعيدا في النفس، ويستقي إلهامه من التجربة الإنسانية؛ فعلى الشعراء أن يبحثوا عن جوهر الأشياء لأن الشعر مزيج من المعنى والشعور.

ولذلك لم يجعلوا الشكل الخارجي من وزن وقافية أساسا في تعريفهم للشعر تجاوزا منهم للمفهوم القديم، يقول المازني: "ولقد نظرت، فلم أجد أحدا ممن بحثوا في الشعر جاء بتعريف فيه للنفس مقنع؛ إذ ليس يكفي في تعريفه مثلا أن يقال إنه الكلام الموزون المقفى".

– وقد اتفق أعضاء الجماعة على أن الشعر تعبير يرتبط بالعالم الداخلي للشاعر، لكنهم اختلفوا في تفسير طبيعة هذا الرباط، وتوضيح ذلك: أن المازني والعقاد يفسران معنى (الشعر تعبير عن الوجدان) بأن الشاعر يعبر عن وجدانه الذاتي وتجربته الخاصة وأحاسيسه الشخصية، وبالتالي هو يعبر أيضا عن المجتمع باعتبار أن وجدانه وعواطفه لا يمكن أن تكون ذاتية خالصة في الأحوال العادية.

فالشعر في نظرهما تعبير مباشر عن نفس الشاعر، وكونه فردا يعيش في مجتمع يشعر به ويتجاوب مع أحداثه، فإنما هو يعبر بطريقة غير مباشرة عن هذا المجتمع.

– أما تفسير عبد الرحمن شكري فيختلف عن سابقيه؛ فهو يرى أن الشعر يعبر عن الوجدان العام، وليس وجدان الشاعر الخاص؛ فالشاعر عنده لا يعبر عن عاطفة واحدة وغنما يعبر عن عواطف متغايرة ونفوس متباينة، والقصد من ذلك انفتاح الشاعر المذاهب الفلسفية في تعبيرها عن حالات النفس المختلفة، فيكون الشعر بذلك تعبيرا عن عواطف النفس البشرية التي تتجاوز حدود الزمان والمكان، لا تعبيرا عن نفس صاحبه.

فالقصيدة عند شكري ليست شخصية، إذ يستفيد الشاعر من الواقع ويأخذ منه ولكنه يضيف إليه من نفسه، ونجده لذلك يعترف بأن شعر الشاعر ابن طبعه ومزاجه؛ يقول: "ولا ريب أن شعر الشاعر ابن طبعه ومزاجه، وأن الشعر ضروب متغايرة، وذلك لا ينفي ما ذكرنا (...)، فالشعر خلق خيالي مستقل بذاته من صنع الشاعر، ولذلك تظهر فيه شخصيته الفنية لا شخصيته كإنسان كما ذهب العقاد والمازني".

2- أصول الشعر عند جماعة الديوان:

تحددت عناصر الشعر ومكوناته الرئيسة عند جماعة الديوان في أصول ثلاثة هي: العاطفة، والخيال، والذوق، وقد دعت الجماعة إلى اجتماع هذه الأصول في الشعر بحيث إذا ضعف أحدها أثر في جماله وقوته.

أ- العاطفة:

ذهب أعضاء جماعة الديوان إلى أن العاطفة من العناصر الجوهرية في الأدب؛ فهي تمنحه الخلود لصلتها بالنفس الإنسانية الباقية بقاء الإنسان.

ويرى العقاد أنْ "لا بد في الشعر من عاطفة يفضي بها إليك الشاعر، ويسترجع أو يحركها في نفسك ويستثيرها.."، والعاطفة عند العقاد ليست الرقة والشكوى والدموع، بل هي تلك الطاقة الداخلية للإنسان التي تدفعه لقول الشعر.

والعاطفة عند المازني كذلك من أصول الشعر، يعبر عنها ويثيرها في القارئ، وتقترن بالذهن وتمتزج بالفكر بقدر الحاجة إليه؛ لأن "الشعر مجاله العواطف لا العقل، والإحساس لا الفكر، وإنما يعنى بالفكر على قدر ارتباطه بالإحساس، ولا غنى للشعر عن الفكر".

والعاطفة مبعث الجمال في الشعر في نظر شكري الذي يرى أن "لشعر العواطف رنة ونغمة لا نجدها في غيره (...) والشعر مهما اختلفت أبوابه لا بد أن يكون ذا عاطفة".

ب- الخيال:

يظهر تأثر جماعة الديوان بالرومانسية الإنجليزية في قضية الخيال، ممثلة بهازلت الذي يرى أن "الشعر هو اللغة الدقيقة للخيال، والخيال هو تلك الملكة التي تمثل الأشياء لا كما هي في ذاتها، ولكن كما تتشكل بأفكار ومشاعر أخرى متباينة"؛ فللخيال فعالية في الكشف عن الخفي من الأشياء والعلاقات بينها.

وقد نظرت جماعة الديوان إلى الخيال على أنه وسيلة من وسائل التعبير وليس غاية في ذاته، والاهتمام بالخيال ناجم عن رفضهم للاتجاه الحسي في الوصف.

ومصطلح الخيال من المصطلحات التي شابتها الأوهام؛ إذ يفهم كثير من الناس أنه البعد عن الواقع والحقيقة، والجنوح إلى المبالغة؛ فالخيال الشعري لا ينافي العقل والواقع، لذلك رأى المازني أن الناس أساؤوا فهمه على حقيقته، يقول: "وكأنا بهم يحسبون أن المرء على قدر بعده عن مألوف الناس وتجاربهم، يكون نصيبه من الخيال وقدرته عليه (...) وهذا كله خطأ في خطأ وجهل فوق جهل".

ويقسم العقاد الخيال إلى قسمين:

- **خيال عام:** وهو القوة التي تجعل الإدراك الإنساني ممكنا، ويشترك فيه جميع الناس في عمليات المعرفة.
- **خيال شعري:** وهو الذي يتناول الحقائق ليبعثها من جديد، ويلبسها ثوب الحياة المشهودة.

وبذلك يكون الخيال مقوما من مقومات الشعر، يقول شكري: "الشعر هو ما اتفق على نسجه الخيال والفكر، إيضاحا لكلمات النفس وتفسيرا لها".

ويمكن القول إن الخيال عند جماعة الديوان ملكة من ملكات النفس، تسهم في توضيح الحقائق، وهو خاضع للعقل، ومرتبط بالعاطفة التي تثيره وتحركه.

ويختلف العقاد عن زميليه في فهم تلك الحقائق؛ إذ تعني عنده الحقائق الفنية التي تتمثل في الصدق الشعوري، أما عند شكري والمازني فتعني حقائق الحياة العامة التي يقبلها العقل وتألفها النفس.

ج- الذوق:

تناولت جماعة الديوان مسألة الذوق بعده أداة يهتدي بها الشاعر لتخير أحسن التعابير وأفضل التآليف وخير المعاني وأنسبها، فالذوق مقياس نقدي يرجع إليه الناقد في تقويم النصوص الأدبية والحكم عليها.

وقد اتفق أعضاء الجماعة ضرورة الذوق للشعر نظرا لأهميته في إعطاء القالب الأفضل لما يجيش به الوجدان، ولكنهم اختلفوا في تفسيره؛ فعبد الرحمن شكري يرى أن هناك ذوقا عاما يضاف إلى الذوق الخاص، والذوق العام عنده ما اجتمعت الأذواق على استحسانه أو استهجانه، والذوق الخاص ما اختلفت عليه، أما العقاد والمازني فيميلان إلى الذوق الخاص ويعطيان له الأولية في النقد.

- وقد تلخصت القضايا النقدية حول ذلك فيما يأتي:

1- الوحدة العضوية (الوحدة المعنوية):

من أهم القضايا التي ثارت فيها جماعة الديوان على مدرسة التقليد، هي تفكك القصيدة العربية لاعتمادها على وحدة البيت، فالبيت في القصيدة العربية القديمة وحدة مستقلة بذاتها؛ بحيث يمكن التقديم والتأخير في القصيدة، لأن البيت لا يرتبط بما قبله وما بعده، لذلك دعوا إلى وجوب أن تكون في القصيدة وحدة معنوية أو فنية.

فرغم أن القصيدة العربية مبنية على وزن واحد وقافية واحدة إلا أنه لا يحقق لها هذه الوحدة المطلوبة، يقول العقاد: "فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية، وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة، إذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافي المتشابهة أكبر من أن تحصى؛ فإذا اعتبرنا التشابه في الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز إذن أن ننقل البيت من قصيدة إلى مثلها، دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز"

ولذلك جعلوا الوحدة شرطا في الكمال الفني للقصيدة التي "ينبغي تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة

بأجزائها، واللحن الموسيقي بأنغامه؛ بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها؛ فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة...".

فالوحدة المعنوية (العضوية) التي يطلبها العقاد وزميله المازني هي وحدة الخاطر أو تجانس الخواطر حتى تكون القصيدة كالجسم الحي في انسجام أعضائه وتكاملها وتناسقها، فلا يأخذ أحدها مكان الآخر ولا يغني عنه، وهي وحدة شعورية فكرية، تقوم على خيط نفسي يربط بين أجزاء القصيدة.

وقيمة البيت الشعري تبعا لذلك تكمن في الصلة بين معناه وبين موضوع القصيدة؛ لأن البيت جزء مكمل ولا يصح أن يكون خارجا عن مكانه.

وفي ذلك دعوة إلى وحدة الموضوع أو الغرض؛ لأن الشاعر مطالب بوحدة الفكرة والمعنى؛ الذي يصل إليه القارئ بعد الكشف عن معان جزئية تكون منسجمة متكاملة.

أما عبد الرحمن شكري فيقصد بالوحدة العضوية مراعاة التناسب والانسجام بين مكونات الشعر المختلفة كالعاطفة والخيال والفكر، ولا ترتبط بالغرض أو الموضوع وحده، إذ يرى تعدد الموضوعات في القصيدة العربية التقليدية لا يخل بوحدتها؛ لأن النفس إذا فاضت بالشعر أخرجت ما تكنه من الصفات والعواطف المختلفة في القصيدة الواحدة.

2- الوزن والقافية:

رغم اهتمام جماعة الديوان بالمضمون في الشعر؛ إذ أدخلوا عناصر جديدة في تعريفهم له كالعاطفة والخيال، إلا أنهم لم يهملوا الجانب الموسيقي متمثلا في الوزن والقافية، وقد عدهما العقاد خاصية أساسية في الشعر العربي، يقول: "إنما الوزن المقسم بالأسباب والأوتاد والتفاعيل والبحور خاصية عربية نادرة المثال في لغات

العالم، وكذلك القافية التي تصاحب هذه الأوزان"، ولذلك رفض إلغاء القافية والوزن لكنه دعا إلى التجديد فيهما ليتسعا للأغراض الشعرية المختلفة.

إذ رأى أن "أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر تفتحت مغاليق نفسه، وقرأ الشعر الغربي فرأى كيف ترحب أوزانهم بالأقاصيص المطولة، والمقاصد المختلفة، وكيف تلين في أيديهم القوالب الشعرية فيودعونها ما لا قدرة لشاعر عربي على وضعه في غير النثر".

وقد ضرب لذلك مثالا بالتجربة الشعرية الجديدة لزميليه في الجماعة شكري والمازني؛ اللذين نوعا في القوافي، فنظما قصائد في بحر واحد وقواف شتى بين مرسلة ومزدوجة؛ فكسرت الرتابة بتجدد القافية وتنوعها، وفسحت المجال للشاعر العربي أن ينظم في أغراض جديدة كالشعر الملحمي والشعر القصصي.

من ذلك قول عبد الرحمن شكري:

فصوتُ اللّيلِ من صوت الضّمير مهيبُ القولِ كالهادي النّذير
يئنُّ صداهُ في صُمِّ الضّلوع ويكسو النّفسَ ثوبًا مِن خشوع
فيا مأوايَ من عَنَتِ الحياةِ إذا أنا مِتُّ لا تهجرْ رُفاتِي

والدعوة إلى التنويع في القوافي لا تلغي تمسكهم بها؛ فهي عند شكري من مقومات الشعر الأساسية، وعند العقاد والمازني تمثل الجانب الشكلي للشعر العربي.

وهكذا فإنهم لم يعملوا على تحطيم الإطار التقليدي للقصيدة العربية في جانبها الشكلي؛ إذ لم يبتدعوا شكلا جديدا وإنما حاولوا التوسيع فيها.

3- الصنعة:

تصدت جماعة الديوان لقضية الصنعة التي كانت تمثل ظاهرة في الشعر العربي القديم؛ وقد نادت بتحرر الأدب من الصنعة اللفظية والتكلف، وأن يكون المعنى

المنبعث من الروح هو الذي ينبغي أن يهتم به المبدع، والصنعة المذمومة عندهم هي المغالاة في الإغراب واستخدام المحسنات والزخارف اللفظية.

وجاء في مقدمة كتاب الديوان أن مذهبهم الجديد إنساني "لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة".

ومصطلح الصنعة عندهم يعني أن يقول الشاعر شعرا على غير طبع، محتذيا نماذج الأقدمين في تكلف، فيأتي الشعر ضعيفا، بعيدا عن الصدق والتأثير، ومقياسها افتقاد الشعر للعاطفة رغم ما يبدو عليه ظاهرا من زخرفة الألفاظ؛ فالصنعة لا تكمن في الإكثار من الصور البيانية و الإغراب في اللفظ فحسب، بل هناك صنعة في الخيال والعاطفة، لذلك فرقوا بين الصنعة المحمودة التي تبلغ من الجودة ما يجعلها تحاكي الشعر المطبوع، والمذمومة هي التي تروم التعقيد والإغراب.

4- الصدق الفني:

اتفق أعضاء جماعة الديوان على أن الصدق لا يعني مطالقة الفن لما هو كائن مطابقة حرفية، ولا توافقه مع الوقائع والأحداث التاريخية، وإنما حقيقة الصدق في نفاذه إلى جوهر الموضوع وملامسة روحه، يقول العقاد في ذلك: "الصدق هو جوهر الجمال وأس البلاغة وقوام الذوق السليم (...)، فإن الصدق في الكتابة هو النفاذ إلى روح الموضوع، والإحاطة بأصوله ومقوماته، وأما مطابقته الواقع في التواريخ فهي جمع معلومات خارجية حول الموضوع لا تمس روحه".

فالصدق المقصود هو الصدق الشعوري، ومصدره الطبع الأصيل، البعيد عن التكلف، ويمكن القول إن الصدق هو التزام الشاعر الحقيقة الفنية لا الحقيقة المجردة، والحقيقة الفنية هي الحقيقة النفسية؛ أي صدق الشاعر مع نفسه من خلال التعبير عما يختلج فيها، وآية ذلك التأثير في النفوس، لأنه المحك الذي يتميز فيه الشعر الصادق عن الزائف، وقد رأى المازني أن "للصدق في الترجمة عن النفس والكشف عن دخيلتها أبلغ تأثير"، لذلك ارتبط الصدق عندهم، بالطبع فهو تعبير عنه.

- **مكانة جماعة الديوان:**

كان لجماعة الديوان تأثير بالغ في الحركة الأدبية والنقدية بعدها، وذلك للمكانة المهمة التي تبوأتها على الساحة النقدية؛ فقد احتل أفرادها باعتبارهم جماعة أدبية ونقدية مكانة بارزة؛ للمفاهيم والقضايا الجديدة التي دعوا إليها والحركة النقدية التي أثاروها، وكان لصدور كتاب (الديوان في الأدب والنقد) أثرا نوعيا في التوجه نحو اتجاه جديد في الأدب والنقد.

وقد ترتب عن هذا التوجه نحو الفكر العالمي حركة تجديد حقيقية، خاصة ما تعلق منها بنقد الشعر؛ إذ جد مفهومه وأرست قواعد جديدة للأدب استفاد منها الأدب العربي وفتحت الآفاق أمامه، ومع ذلك لم تحاول الجماعة هدم العناصر الأصيلة في التراث العربي أدبا ونقدا، وقد أثرت هذه الجماعة في مسيرة الأدب والنقد تأثيرا ملحوظا في المرحلة التي تلتها لما تمتعت به من إمكانات فكرية وثقافية وإبداعية.